



## على الحافة

### ادوار الخرافات

السوداء . سحابات حية . وكان هذه الغربان فهمت ، وكأنها تسخر من نفسها . معي . لكننا لم نكن قط أصدقاء . وكان الغراب الحالك السواد هو شيخها ، ويعرفني .

أقف ، بلا حراك ، تحت المئذنة . لا أستطيع ان أحول بصري عن الغراب ، وحدنا في العالم كله .

في جدار المئذنة نافذة دائرية منقورة في الحجر الكثيف ، سدت بألواح من الخشب الخشن ودقت عليها المسامير . ورأيت ، قريبا مني جدا ، صدا الرؤوس الحديدية الفليضة ، تأكلت حوافها ، وألياف الخشب القديم قد اسودت بطبقات من تراب المقطم وعظام السيارات . الهلال المعدني بعيد فوق ذؤابة المئذنة معوج القوس . كأنني سمعت نفسي أقول لنفسي : سقطت كبرياؤه .

وشب الغراب الضخم ، على غير انتظار ، دون أن يصططق جناحاه ، دون أن يبسطهما ، وأصطدم ، دون صوت ، بالخشب الذي يسد النافذة ، وغاب فيها ، اخترقها ، دون أن يفتح له فيها أدنى شرح . ما زالت النافذة مسدودة .

صلصلت أجراس مترو حلوان وهو يتدحرج على قضبانه ، بقلقلة يهزم هديدها فجأة ، وأعرف بلا دهشة أنه يتجه الى المقابر . نفثت السيارات المتلاصقة المقتحمة بمقدماتها في كل اتجاه ، نافذة الصبر . الحوذي القصير المتين يشب على عربته الكارو التي تنوء بأسياخ حديد التسليح المشعنة ، ويثبت قدميه بمقدمة العربة المتأرجحة ويشد العنان ليوقف حصانه الكثيف الكفل . الحصان الغمى العينين يزر فر فجأة في صدمة الكبح التي لا تطاق . الناس ينسكبون سيلا واحدا بلا انتهاء ، فرادى ولكن في مجموعات متدافعة ، يناولون ، كالعجين الكثيف ، بين السيارات وجنب خيل العربات وفوق القضبان وغير الارصفة وتحت الدكاكين وعلى أبواب البيوت ، في الحر والعرق والتراب وضجة النهار المتناثرة الاصوات .

أرى المئذنة القديمة ترتفع ، بصعوبة ، فوق انقاض الجامع الذي لم تبق من جدرانه العريقة الا أكوام من أحجار ضخمة . على حافة شرفتها المكسورة ، قريبا جدا مني ، أمام عيني ، يقف الغراب . أسود اللون تماما . حتى منقاره المدبب كان حالك السواد ، مطبقا .

وانتظرت ، وأنا أكاد المس بيدي دقات قلبي ، فلم ينطق الغراب .

كان راسخا ومطوي الجناحين ، كأنه حجر ، لولا أن عينيه تتقدان بنار مركزة ، فضان من جوهر دجي . وتجيش في قلبي ، فتنة ، ونفرة . ولكنني مرصود .

كنت قريبا جدا ، لأول مرة بهذه القربى ، من شيء له كل هذه الغرابة ، وكل هذه اللفة معا . كأنما كنا معا في حلقة مضروبة علينا ، بلا فكاك .

وعرفت أنني عدت الى غمرة سنوات الحب الاخرس وأشواق الصبا التي لا مثيل لنور سداجتها ، أن تكون هذه الارض هي أرض العدالة وأن تعود الى الناس .

كنت قد خرجت الى جسر النيل ، في عز الظهر ، ومجد الامواج الحمراء يتقلب في عرامة الفيضان . السماء المحترقة بالنور ، والاشجار الهفافة ، وبيوت الفلاحين المكومة ، كلها معقودة أمام عنفوان هذا الانصباب الذي يدمدم بين جسوره العالية ، فيفرض على كل شيء مهابته .

وكانت الغربان تعرف ، مثلي ، شجرة السنط الوحيدة على رأس الجسر الحجري الممتد قليلا الى داخل النهر . كانت المعدية الصغيرة تخرج منه الى الشط الاخر البعيد ، في التحاريق .

أما الان ، وحتى تخفت غضبة الفيضان ، فهي مقلوبة على بطنها ، متربة .

كنت أتسلق جذع الشجرة المتلوي وأنتزع السائل اللزج من جلدها العتيق ، فيتماسك قوامه بسرعة بين يدي ، بعد أن أجرحها في رفق ، كأنها جراح الحب . وكانت الغربان تأوي الى فروعها النحيلة ، وتتنادى بصرخات لم يكن يخيفني نعيها ، وتخفق بأجنحتها

في قلب هذا الانهماك من زحمة الناس ، عالم آخر ، منفصل ولكنه وثيق الصلة بنياط قلبي ، أعرف أنه عالمي الذي ليس لي غيره . فقط أحس بضغطه يزداد فداحة ، وأعرف أنني لا أريد الخلاص من هذا الثقل .

وقبل أن تند عن حلقي المسدود صرخة كابوس الفجر المعتادة التي أعرف أنها قادمة الآن ، تبدأ متحشجة ، ثم تنفجر ، تدوي في الصمت بجنون لا يعي شيئا ، بجموح يهتز له أول الصباح ، قبل أن ينفلت الوحش المتربص دائما في قلبي يكسر شرخا في جداره بصيحة زئيره المتصلة ، وجدت نفسي أسقط فجأة ، درجة كاملة من درجات هذا العالم ، لم أترك المئذنة القديمة ولا ضجيج الناس المحتشد وكنت ، في الوقت نفسه ، في مساء « الطرانة » ومعني لينده ، أمام الفيضان .

لاول مرة وحدنا ، نسير على جسر النيل ، ونعرف أن الحقول حوالينا خالية . الحدا والغريان تطوف فوقنا في السماء الحارة التي تستروح طراوة الغروب .

وكنا معا ، دون كلام ، نسترق النظر الى الفيضان ، نستوثق أنه ليس فيها أحد من الفلاحين . كنا قد خرجنا وحدنا دون أن نقول لاحد . وكنت أحس في هذا ما يشبه الجريمة أو المروق ، على الأقل . ولو عرف الاهد فماذا يمكن أن يحدث ؟ كان هذا الخوف يحفز القلب ، والمغامرة غير محسوبة الوقائع .

كان التراب الهش يثور تحت أقدامنا في هبات ترتفع قليلا ثم تنعقد لها سحبيات صغيرة حول أرجلنا ، وكانت هجسات مولد الصبا الصعب تملأ نفسي برغبات لها ثقل يهبط ببطء كأنما لن يصل أبدا الى قرار .

كانت لينده تدفع بساقيها في الشيشب الذي يبدو ثقيلًا وأجنبيا وغير مستقر في قدميها ، فقد كانت تمشي ، عادة ، حافية .

وقلت لنفسي : ومع ذلك فقد كان أبوها صرافا محترما ولها اولاد عم في الهندسة والزراعة .

وكانت كل يوم تفسل قدميها وتحكيما بالحجر الخفاف حتى يحمر الجلد ويعود الى نعومته . دخلت مرة الى بيتهم في الليل ، وكانت عارية الساقين أمام الطشت ويدها الابريق . ورأيت نعومة ساقيها كأنما أحسستها بعيني . وعندما كنا نجري ونحن نلعب عساكر وحرامية مع اولاد العائلة وبناتها ، كنت أتعهد أن المس قدميها بقدمي الحافيتين أيضا .

كانت لها ضحكة من القلب تنطلق دون عناء ، من فيض السعادة بالشراب . ضحكة بنت تشتمل بنضوج نوثتها . بينما كنت لا أعرف كيف أضحك .

كنا نزل الان ، نكاد نتدحرج ونقع ، بسرعة متزايدة الايقاع ، من حافة الجسر الى فسحة من الارض على الشط

مباشرة . وسمعت غرغرة المياه الحمراء وهي ترتفع بالفيضان ، كأنها محسوسة ، تحت شقوق الارض التي تتسع رقعة البلل فيها ، غدا سوف تغيب تحت المياه المتصاعدة .

كان المغرب ساكتا الا من نعيب الغربان على شجرة السنط العالية ، يصل الينا من بعيد . وكانت هذه الناحية من الجسر على غير طريق عودة البهائم من مرعاها فهي صامتة وموحشة ، وكنت أحس الفيضان منهكة بعد صهد النهار . شواشي الذرة لها وشوشة ، حفيف لا يكاد يستبين .

وكانما على هذا الجسر نفسه ، وكانما على مقربة من شجرة السنط هذه نفسها ، وقف محرك السيارة فجأة وهبط طنينه الى الصمت . كان الطريق في أول الليل سخنا من حر يونيو الثقيل ، يمتد بين سور منخفض وبيوت المقابر التي تبدو مبهمة ملتبسة ، أبوابها الحديدية على شكل غصون متعرجة وأزهار يومض من بينها المغيب القاتم . امتدادات الارض تتناثر عليها الشواهد القائمة والمائلة ، والمكعبات المدببة ، مصفوفة ومتناثرة ، أطول قليلا من الجسم المدفون ، وبينها فراغات مرهوبة . وكانت القباب العالية من ورائها كتلا من المعمار كأنما لا وزن لها ، تسبح ، داكنة ، بازاء السماء التي تبدو خاوية وخفيفة . صخور المقطم معتمة وناتئة الحواف ، ومصايح الشوارع الصاعدة ، متباعدة ، بقعا مدورة بضوئها الازرق الباهت .

عندما فتحت باب السيارة كان انتفاضها المتوتر قد خبا أخيرا . وسقطت قدمي على الطريق كأنما بلا انتظار ، كان الطريق أخفض قليلا مما توقعت ، وثارت تحت خطوتي عفرة صغيرة ظلت معلقة حول ساقي ، ونفضت رجل البنطلون وسمعت السائق :

— قرني بيته بعيد يابيه .. والسيارة ليست لها سكة هنا بعد الان .

قلت : لا يهم .. نسير على أرجلنا .. يالله بنا .. على بركة الله .

ثم قلت : اللهم أن نعثر على المفتاح .

وفكرت أن أمامي ليلة طويلة من العمل ، من وراء زجاج النوافذ المسدلة عليها ستائر سوداء متهافتة القماش . وقلت لنفسي : ان البرقيات يجب أن تصدر في الصباح ، من غير جدوى ، الى كل العناوين فسي مشارق الارض ومغارها تستصرخ بيأس صادق ، وتعلات كاذبة ، وفكرت أن الصحراء في هذا الليل بلا رحمة ، وكنت أمقت السماء وهي تنقض على جسيمي الذي لا منعة فيه ، في هذا العراء .

لم نكن قد عثرنا على المفتاح ، وقلنا ان هناك نسخة منه مع الخفير الذي يسكن في بيوت المقابر ، وقلنا نذهب اليه اذن ، ثم نستدعي دورية السهر بالتليفون بعد أن

نعود . وكنت أعرف وأنا على أول طريق المقابر الموحش  
اننا لم نرسل البرقيات قط ، في الصباح التالي ، وكنت  
عندئذ أحس أنفاس القاهرة المحبوسة تتردد في صدري ،  
والمدينة التي أصبحت شاسعة صامتة كما لم أعرفها تصمت  
أبدا ، والاوتوبيسات الثقيلة الحمراء تنطلق بهوج فسي  
الشوارع الساكنة وتميل بجانبها من السرعة ، نصفها  
فارغ وركابها لا يتكلمون . وكنت أرى الهواء الذي  
يخشخش بورق الصحف والتراب الخفيف على الأسفلت .  
كانت الميكروفونات تردد في هذا الصمت بيانات قديمة  
ميتة لا يسمعها أحد . كان توقع وصول المساء يثقل  
القلوب بعبء قابض .

وقفت من جديد تحت شجرة السنط القديمة وقد  
غلظ جذعها ، وثقلت فروعها ، وتراكت ، وهي الآن تصعد  
من تراب الجسر الذي لم يعد يذكّ بالحجر والطوب  
وظهرت فيه حفر هشة ، وامتد إلى جانبه طريق جديد  
مسفلت في وسطه خط عريض من أثر جريان عجلات  
السيارات ، وعليه أعمدة رقيقة في كل منها مصباح  
كهربوي واحد صغير أصفر مشتعل في عز النهار . كان  
النيل قد روض الآن ، وصمت ، وينسكب نحىلا  
ومنخفضا . وقلت لنفسى هل انقضى فعلا عصر الرؤى ،  
وانكسرت ؟ وقلت لنفسى : لا أعرف بعد كيف أخلص  
من الاحلام الرثة ، وقوالب الكلام .

كانت قد جفت قشرة هذه الاحلام وتخمرت عجنتها  
الدفينة ، وكنت أحسها دفيئة وموجعة كجراح الحب .  
ومددت يدي إلى الشجرة العجوز وعرفت أن عصارتها قد  
يبست . طالما صنعت من كرياتها ملء زجاجات الصمغ  
عاما بعد عام ، الصق بها في كراسات المدرسة صور  
ديستوبفيسكي وعراي والطهطهاوي وتروتسكي  
وشيكسبير .

كانت الشجرة مهجورة ليس عليها غراب واحد ،  
ولا تدور حولها العصافير الصغيرة القلقة التي لم أعرف  
أبدا ما اسمها .  
فاجأتني السكون المطبق على كل شيء ، جسر النيل ،  
وسعة الفيضان ، وحواري القرية ، وحنفية الماء المكرر  
الذي يتقطر على التراب ، كلها صامتة الآن .

أزير عجلات سيارة فيات لامعة تمرق فجأة بجانبى  
كانها تسير في فلك خاص محاذ للنيل ولكن لا صلة  
بينهما ، وسلسلة من سيارات النقل المرتفعة الجدران  
لها مقطورات مسطحة ، حمولتها مربوطة بحبال قوية ،  
وفوقها حمال خاسف الجسم نائم كأن عظامه مكسورة  
ومكومة ، يطير الهواء بجلبابه الذي لا لون له .

كان هذا الصمت منذرا . لم أر في السماء الحدا  
المرصدة التي كانت تحلق في دوائرها الواسعة ، ولا  
الهداهد التي كانت تنتقل بسرعة من الفيضان إلى الشجر ،  
ولا مجمع الغربان .

وسمعت نفسى أسأل : أين الطيور ؟ أين هدهد  
سليمان ؟  
وقال قريبي وهو الآن في بكالوريوس العلوم : طبعا  
يا سيدي اختفت . . المبيدات الحشرية .

وطاف بذهني من غير مناسبة انه في الاحلام تأتي  
كلمات وأفكار كل يوم ، وكأنا في الحلم نزجي وقتا مملأ  
بكلمات لا نقصد منها شيئا .  
وقلت لنفسى : قطن الحكومة له ضريبة فادحة .

عندما وصلنا إلى عجلة الساقية القديمة المرمية على  
الارض ، جلسنا على خشبة عريضة متربة ، أحد  
طرفيها مرتفع يستند إلى حجر كبير ساقط من الجسر ،  
والطرف الآخر ، يهبط إلى الارض ، وقد نال من الخشب  
عطب ، فتحللت عضلاته ولكن بقي عودها قوي الاسر .  
والعجلة الضخمة تكاد تسقط على جنبها ، في توازن  
يمكن أن يكون منذرا لولا أنه عريق الثبات وقد غاص جانب  
منها في الطين الجاف ، وتوحي . في هذا الوضع الغريب .  
في هذا القرب الغريب ، برهبة الاشياء المهجورة التي  
يرودها حضور غامض . ومياه النيل العريض تصطفق  
بصوت اصطدامات مائية متعاقبة ومتغيرة الارتفاع فيخفق  
لها قلبي في توجس وفرح ، وتنعكس السماء على الطمي  
الداكن الاحمرار .

انحسر طرف جلايتها عن كاحليها اللذين أدهشتني  
دقتها ونعومتها ، وأثارتني . وهي تجلس ، وتسوي  
نفسها على انحدار الخشبة ، فيبرز أعلى فخذا من  
وراء الجلاية مدورا ومحبوكا يبدو لعيني غض الملمس .  
وفي نور المغرب رأيت وجنتيها متخرجتين بنار نضرة ،  
وكانت أنفاسها متسارعة ، وهي صامتة على غير عاداتها ،  
تلمعان بسواد ساطع . كان هذا الاحمرار الذي أعرف  
أنها تصنعه عندما تبلل قطعة حمراء من القماش المشبك  
تبيعها البلاطة لصبايا القرية ونسوانها فيبللنه بالريق  
ويمسحن به الخدود والشفاه . وكان ذلك هو زواقتها يوم  
الاحد عندما تأتي إلى الكنيسة . وكنت أعرف أن أمها  
تدعو عليها وتستمطر لها التوبة من الله عن هذه النيلة  
التي تعملها في نفسها ، وتدعو لها بالعدل وابن الحلال  
الذي يكفيها ويشكمها ، وأنها هي تحلف بحياة الصليب  
أنها لم تعمل شيئا وان هذا اللون رباني وما ذنبها فيه ،  
ثم توقد شمعة أخرى للاستغفار من الحنث بيمين  
الصليب ، وتصلي بحرقة وتترقق عيناها بالدموع في  
القداس .

وسمعتها وهي تقول : أنت ستعود إلى الاسكندرية  
بعد قليل أو كثير ، في آخر الصيف ، لتذهب للمدرسة .  
أهذا ضروري ، المدرسة ؟ لماذا لا تشتغل ، وتكسب ؟

ولم أجرو على فهم ما تقول . كانت جلايتها الفلاحي  
الملونة تسقط الآن على جسمها المتوفز ، كأنها حيوان في  
عز فتوته . كانت فعلا حيوانا انثويا في عنفوان الشباب .

وفكرت أنها تكبرني على الاقل بثلاث أو أربع سنوات .  
وقلت لنفسي ان هذا لا يهم .  
وكانني رددت عليها : اشتغل ؟ أنا ؟

وسمعتها تقول : آه تشتغل ، وتأخذ ما تريد .  
الست رجلا كالرجال الذين يشتغلون ، ويكسبون ؟

ولم يكن قد خطر ببالي أنني لست كالرجال الذين  
يشتغلون ويكسبون . ولكنني لم أكن أعرف كيف أجيب .  
وكنت أعرف أنني هنا في نطاق خاص لا رد عليه ، يخالف  
كل ما أعرفه . وخيل الي أنني آخذ التوجيهية ، وبعدها  
الجامعة أيضا . سأشتغل ، طبعاً .

وسمعتها تضحك وعرفت في ضحكتها مرارة لا  
شأن لها بي : يوه .. موت يا حمار لفاية ما يجي لك  
العليق ..!

ورأيته تقوم فجأة ، وانسدلت جلابيتها على  
جسمها الذي توتر ببقطة مفاجئة وهي تصعد الجسر  
الوعر برشاققتها النافرة ، وردفاها يتحركان في ايقاع  
متناوب سريع ، وهي تمد ذراعيها بتوازن حرج ، وارى ،  
وانا تحت ، صدرها الذي لا يسنده شيء ، يهتز وهي  
ترقى الجسر ، وتثب الى سلامة حافظه .

وانا ايضا اتسّم انحدار الجسر لا اصل ابدا الى  
اعلاه ، خطواتي لا تنتهي ابدا ، والسماء عالية . ولا تبدو  
لي غرابة على الاطلاق في هذا الصعود المتصل الذي  
لا بطء ولا سرعة فيه ، كأنني لا اتحرك ، وكأن الجسر  
ما يني يزداد علوا كلما واصلت الارتفاع عليه . لا دهشة  
ولا تساؤل ، بل ارهاق طويل . كنت اعرف ، في هذا  
الصعود الذي لا اكسب فيه ولا اخسرارضا ولا زمنا ،  
ان نسخة الاهرام الوحيدة سوف تصل الى القرية بقطار  
بعد الظهر ، وسوف يأتي بها ساعي البريد الطواف على  
حماره الميري الابيض ، وسوف اقرأ في آخر هذا الصيف ،  
ان تشيكوسلوفاكيا قد سقطت . وكنيت انا ايضا ،  
كأقربائي الفلاحين ، اجد صعوبة في نطق اسم هذا  
البلد الصغير البعيد ، وكنيت ارى حروف المطبعة الكبيرة  
المسطحة في العناوين الممدودة بالاحمر على عرض الصفحة  
الاولى ، ونص اعلان الحرب على المانيا ، بتوقيع الملك  
جورج السادس .

ارى الحرس العسكري يقف باناقة وجمود ، على  
باب مينا هاوس ، وسيارات الجيب العسكرية وعليها  
المدافع الرشاشة مصوبة الى الشارع . وكانت لوريات  
الامن المركزي في الظلام ، مكتظة بالجنود ، غامضة  
المعالم وثقيلة .

دخلت من الباب الزجاجي العريض المائي النسيج ،  
الانوار الملونة المعلقة في السقف بحلقاتها الصفيح المخبوءة  
بمكر الصنعة تسقط على السجاد والبلاط الرخامي  
الفسيح . منصات الموجني المصقولة ، هربير التليفونات

واصواتها النسائية بالانجليزية والعربية، المقاعد المنخفضة  
تفوص فيها امريكيات سيقانهن عظيمة مكشوفة ، وعرب  
بالعقال السعودي والطاوية الكويتية المخرمة والجلاليب  
الحريرية التي تتخايل من ورائها ارجلهم الدقيقة فيما  
يشبه بذاءة لا تكاد تلاحظ ، عيونهم المسدودة تحت حواجب  
عميقة السواد تطل من وجوه في لون الزيتون، والسفرجية  
بطرايشهم واحزمتهم الحمراء يتحركون حركات الدمى ،  
البوتيكات وشركات الطيران خالية وانوارها متقدة ،  
كأنها منسية ، من وراء الابواب الزجاجية المفلقة وآلات  
التيكروز من وراء الابواب الشفافة تدق بخفقات معدنية  
موزونة الموسيقى ، وارى مصابيحها الصغيرة مشتعلة  
بنار صفراء .

كنت اسير عبر الردهة الباذخة لا تحتجزني  
ومضاتها كأنني اعرف طريقي .

كانت الصهاريج الالومنيوم الهائلة تطن ، وتفح  
بخارا ساخنا في سحابات بيضاء لها وشيش ممتلىء  
يخبو ليصعد من جديد ، في دقات منتظمة . وكانت  
المرجل المتينة القوام تغلي بنيران كهربية تصدمني قوتها  
صدمة لا تنفرج ، والانابيب الضخمة تمتد في خطوط  
مستقيمة الزوايا وترتفع حتى تخترق السقف الشاهق ،  
ومنصات المطبخ الحديدية عليها خطوط بارزة تسييل  
بزيت شفاف . كنت ابحت عن شيء اعرف انني لن  
أجده هنا ابدا مع ذلك ، واوصل البحث في لهفة . ولم  
يكن من الممكن ان أسأل الطباخين بقاماتهم الطويلة  
وقبعاتهم القماشية البيضاء العالية وقد تهدلت قليلا من  
الحر والبخار ، وهم يعكفون على طواجن نحاسية ضخمة  
كأنها اقواس دائرية مقطعة من خزانات البترول التي  
نجدها بالقرب من محطات السكة الحديد ، يقبلون ما  
فيها بمفارف خشبية طويلة ، داكنة من البلل ، ووجوههم  
لا تعبير عليها .

واندفعت ، في بحثي ، بين الطباخين الذين لم  
يشعروا بي ، كأنني اصلا لست هناك ، الى هذه المواعين  
اللامعة الجدران . وانحنيت عليها ، كأنما انتظر ان اجد  
في داخلها ما انشده .

الطيور الضخمة التي تعد للوجبات العامة، مسلوخة  
منتوفة الريش ، مشدودة الجلد . أعرف انها حية ، ما  
تزال تنبض . تفوص قليلا في عجينة المايونيز الطرية  
المصفرة الكثيفة ، ولها رؤوس مقلوبة على وجوهها تتحرك  
حركة واهنة ، عيونها مدفونة في العجين المتخمر ببقعات  
كبيرة تتضخم ثم تنفجر بصوت بذيء ، ولها من الخلف  
انحناءات مألوفة ، حليقة ومدورة ، تنتهي الى اعناق  
شبه بشرية ، ظهورها نصف الفارقة تنتهي الى سيقان  
مدكوكة العضل ملوية عند الركبة ، لا يبدو غير نصفها  
العلوي . وكان انسحابها الاثوي غضا وله جاذبية تقبض

الاحشاء ، تحت استدارة اليرداد الملية ، نصفها فوق العجين ونصفها غارق فيه . الافران الضخمة تثر تحتها ، والعجينة تغلي وتغور ، والاطراف شبه البشرية تبدو كأفخاذ مدينة سخنة ، يلتقطها الطباخون بمغارفهم فتفصل بسهولة عن المفاصل ، كأنها من غير عظام ، ويقذفون بها الى الصهاريج التي تنفث سحبات البخار ، وعندما ترتفع في الهواء كانت اقدامها تبدو ناعمة الجلد واصابعها وادعة ومثيرة .

ورجعت ، أجري هاديء الانفاس ، لم اجد ما ابحت عنه .

وفي هذا العالم السفلي وصلت الى المصعد الواسع الذي لا باب ولا سقف له ، أرضه من أعواد الخشب الرفيعة المتجاورة على حديد مسطح ، وبها لزوجة من اثر الشحم والدهن القديم . هبط المصعد بي في بئر العممة العميقة القرار ، حباله المعدنية المظفورة ، امام عيني ، تهتز في توتر مستمر النبض . حتى خبط بالقاع فجأة في هديد مكتوم ، وخرجت من كسر مفتوح في جدار رقيق منفصل ، مقام على طوبة واحدة .

ما زالت أجري في حقل لا نهاية له من التراب الموحل . الانقاض حولي ترتفع وتندحر في اكوام هائلة متتابعة حتى مدى البصر . قضبان حديدية ، كأنها شرائط ورق ، تخترق هدد الاحجار المتساقطة بالتواءات مدبية وكأنها حية ما زالت ترتعش ، وتطن السماء الداكنة الحمرة ، اطراف الافق ، عند النيل ، تشتعل بدخان بنفسجي قاتم كثيف الاحتراق .

لم يكن لجسمي وزن وانا اصعد واهبط فوق الاكام وفي بطون الارض ، والاتوبيسات ، كأنها لعب صغيرة نصفها اسود متفحم من النار ونصفها ما زال يبدو في نور السماء احمر اللون بقذارته المعتادة ومحركاته المكشوفة ، وقد قذف بها فوق ركام الحجر والحديد ، مقلوبة ومنبعدة وظهورها قد خسفت ومقاعدنا ناتئة تخترق زجاج النوافذ العريضة الذي لم ينكسر . ارضية كوبري ٦ اكتوبر العلوي قد انقلبت واصبحت في امتدادها الراسي النحيل حائطا عموديا يقف في عرض النيل ، سقطت كتل الاسمنت الضخمة ، ما زالت متلاصقة ولكنها تنبسط جدارا رفيعا يشق السماء ، انزلت عليها السيارات وهي تنقلب ، وغاصت في النيل ، لا يدل عليها الا فقاعات من الهواء تنفجر بهدوء على سطح المياه السوداء .

ويبدو كوبري قصر النيل قريبا مني ، مكسورا من منتصفه كأنه مقطوع بسكين حادة ، ما زال نصفه مستويا يهتز اقل اهتزاز ، سياجه معلق ، بأعمدته الرقيقة القصيرة ، لا يحيط بشيء ، في الفراغ ، فوق الامواج القائمة الخضرة وعليها حلقات متكاثفة الورق من نبات ورد النيل الغليظ . برج القاهرة يميل بارزا من بين

النباتات ، يمتد من الجسر الى قلب النيل ، يبدو مسدودا وتتموج حوله دوامات صغيرة ، وبجانب طرفه الساقط على الارض تتأرجح في مياه الشط معدية سليمة الاخشاب وكاملة وفيها مجدافان ، يرقد فيها المراكبي وزوجته واولاده ، هادئين ، كأنهم نائمون ، وما زال وأبور الجاز مشتعلا يفتح ، وبجانبه طبخة سمك لن يأكلها الان احد .

ورأيت الكورنيش وميدان التحرير ومبنى الاتحاد الاشتراكي القديم والهيلتون الجديد ومبنى ماسبيرو العريض المستدير بأبراجه وأعمدته اللاسلكية كلها قد تحولت الى هدم وحطام . ربوات صامتة ومظلمة في حقل موحل يهبط الى وهدات غائرة . البيوت القديمة بمشترياتها المتبارية ما زالت قائمة ، وما زال الفسيل منشورا عليها . في وسط امتداد الانقاض التي تنبسط في تلال مضطربة بين الكباري الساقطة . علامات النيون المقطوعة ما تزال تشتعل بالاخضر والاحمر من غير جدوى ، حتى ميدان رمسيس ومحطة باب الحديد . التمشال العظيم منكفئ وجهه في التراب ، تنشق من فزقه اندفاعات المياه الرفيعة الخطوط من نافورة ما زالت تعمل بانتظام وآلية ، تحت احتراق السماء الكثيب .

ورأيت في وسط بركة من الماء الاحمر الساكن وجه لينده ، مقطوعا وهادئا وما زالت على شفيتها اتساما صغيرة كأنها تحلم او تسخر ، وشعرها الاسود الناعم الطويل ، من تحت المدورة البيضاء الفضة ، يطفو فوق سطح الماء الضحل ، تهتز خصلاته الرقيقة اهتزازا صغير التموجات . وقلت لنفسني : أوفيليا الفلاحة التي لم أفهمها .

وكانت تتحرك في الطين افراس البحر ، سوداء الجلد غليظة القوام ، لها اقدام مفلطحة وخرطوم تتحرك كالشفاه وتماس في بحث بطيء عن لمسات كأنها قبلات ، ولها اصوات كأنها لفة . وجاش قلبي بالبكاء ، أخيرا ، وانهار ، عندما سمعت منها نبرات من كلمات خيل السي اني اعرفها ، كلمات من لغة قديمة عذبة نسيتهما ، ولكنني كنت اعرفها ، وكأنها تبحث عن حنان ، عن شوق تدرك انه مفقود ، وتذكر انه كان هناك ، وانه لا ينتزع ولا يهوت حتى في ظلمة الاحشاء المرصوفة .

وكنت أسمع انفجارات صغيرة مقطعة لها اصداء موحشة ، طلقات بنادق ودمدمة مدافع رشاشة وقرقعة تقابل يدوية ، متناثرة ، تلوح كأنها لن تنقطع .

وكنت اعرف انهم تحت ، هناك . يتحركون وسط الاجهزة ويحركون الاشياء ، في انفاق محفورة على اعماق بعيدة في الارض . مصمتة ومعزولة تماما ، منيرة بضوء معدني باهر ثابت الدرجة لا ينطفئ ولا يصدر عن مصابيح بل تشع به الجدران المناسبة المصقولة ، وتحميها مدكات هائلة الحجم من الاسمنت والحديد عليها اقواس

ما زالت حاوية . ورأيت بينهم من يحمل فأسه ومقطفه على كتفه ، وهو يلبس جلابيته الوحيدة المتفضضة المسولة . وكانت الكلمات المكتوبة بخط سريع وملهوج على لافتات القماش والخشب والورق المقوى ، وصور الرجل التي لا اعداد لها ، مائلة ومنتصبة ، تعوم فوق الطوفان ، تبدو من كثرتها كأنها لا تقول شيئا . وكانت الاوتوبيسات الحمراء خفيفة الوزن الان تفرغ حمولتها في ميدان التحرير وتعود بسرعة من اي طريق الى خطوط السكة الحديد في ميدان المحطة الفسيح الخرب ؛ وكأنها تسابق موعدا قد أذف ، بل فات .

كنت أسمع هديد الاقدام تخوض في المياه القليلة النور وتستند الى انقاض الاحجار التي غاصت في الطين .

واعرف انه لن يوقفهم شيء ، وانهم ينصبون في اعداد لا تنتهي ، وانهم صامتون الان . \*

القاهرة

\* نصل من رواية « راما والتنين » المعدة للطبع .

الرادار التي ما تفتأ تدور ، بلا توقف . وكأنهم هم ايضا من معدن اسود . عيونهم مدورة ، ثابتة ، اجسامهم محسوبة وعقولهم تنبض بدبذبة منتظمة الايقاع متصلة ولا تغفو . وكنت أعرف أنهم هناك ، تحت ، آلات فيها حياة ، في قلب هذه الآليات الضخمة التي فيها حياة ، خططوها هم لانفسهم وبأنفسهم تخطيطا لا يناله ادنى خطأ في التصميم ، وهم مع ذلك خائفون .

وفي الليل ، وتحت قرقعات تمزق لحم السماء الميت بطعنات لها ضوء عقيم ، كانت اقدام الناس تدوس فوق الحطام ، وكان هديرهم المدمدم في الظلام يصل الى قلبي فيملؤه ، ويفيض ، بالماء الداكن القديم ، وعندما عدنا بالسيارة في الفجر المظلل بغمام ساخن كان طوفان الناس يفرق شوارع المدينة المتهدمة بالجلاليب والقمصان والبنتلونات ، والفلاحات باللبس الاسود ، والرؤوس الحليقة الصلبة العظام التي سهرت طول الليل في زحمة القطارات تطفو متلاحقة بين واجهات البيوت الكالحة ، ووراء احجار السلال المتهارة ، وحول العمود الجرانيتي المستقيم المستدير الذي يرتفع ، لم ينله خدش ، وقمته

دار الاداب تقدم

# الثلج يحترق

رواية بقلم

ريجيس دوبريه

في هذه الرواية ، يقفز مؤلف « ثورة في الثورة » الى الصف الاول من الروائيين الفرنسيين المعاصرين ، فينال أخيرا « جائزة فينا » المشهورة تقديرا لموهبته وفنه .

و « الثلج يحترق » قصة رجل وامرأة ، بوريس وايميليا ، يبحث أحدهما عن الآخر ، فيلتقي به ثم يضعه ، ثم يلتقي به ثانية ، ويحنّ اليه ويفقده ، عبر أوروبا وأميركا . في النضال والعذاب والموت والقتل . من أجل حب البشر .

اختارت ايميليا ، ابنة جبال النمسا ، أن تقاتل من

أجل العدالة . وتلتقي في هافانا بشاب فرنسي ، بوريس ، نجا من ثورة أخرى ، فتسحره ، ولكنها تحب زعيما ثوريا ، هو كارلوس ، وتذهب فتعيش معه في « لاباز » ، في الخفاء والفرح ، الى اليوم الذي تغتاله الشرطة البوليفية . وتفقد ايميليا كل شيء : الرجل الذي تحبه ، والطفل الذي تنتظره ، والمركة التي تخوضها ، ولكنها لا تترك الدرب الذي سلكته ، فمن كوبا الى التشيلي ، ومن بوليفيا الى انكلترا ، ومن باريس الى هامبورغ ، تضطلع بقدرها حتى النهاية . قدر المرأة المناضلة .

ان « التاريخ » يسكن قصة هؤلاء الابطال . فهو لحمهم ، وعذابهم ، وألمهم . ان سعادة بوريس وايميليا مستحيلة ، ولكن أناسا آخرين سيكونون يوما ، بفضلها ، أقل شقاء .

ان هذه الرواية أغنية حب في مأساة عصرنا .  
توكيد ارادة للحياة وللنضال .